الصوفية في ضوء العقيدة الاسلامية

دلالة التسمية:

لاحظ المستشرق (نيكلسون) في كتابه (في التصوف الاسلامي) أن هناك تعريفات كثيرة للتصوف. وخاصة في مرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين. أي بعد أن بدأت ظاهرة التصوف في الانتشار، وأن كل انتساب فيما لاحظ (نيكسون) الى (الصوف) يقابله[1]، اثنا عشر تعريفا تعتمد على الصفاء الذي حاول الصوفية أن ينتسبوا اليه.

وصاحب (اللمع) يريد هو الآخر أن يسير على نفس الخط فيقول: ان العبد اذا صفا من كدر البشرية يقال له: قد صوفى فهو صوفى[2].

ولئن كان هذا الاشتقاق أو هذه التسمية مرفوضة حتى عند (القشيري) في الرسالة القشيرية. لكون هذا الاشتقاق بعيدا في اللغة فهناك من مؤرخي وكتاب الفرق من

---

(١) (في التصوف الاسلامي) - (نيكلسون) ترجمة عفيفي أبو العلا طبعة لجنة الترجمة والنشر - القاهرة ص ٢٨.

(٢) «اللمع» أبو نصر السراج - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود - القاهرة عام ١٩٦٠ ص ٤٧.

يحاول أن يشتق لدلالة (التصوف) معاني من (صفّة المسجد) على غرار تلك التي كانت في مؤخرة مسجد النبي ﷺ بالمدينة، حيث كان ينزلها الفقراء من المسلمين ممن ليس له أهل ولا مكان يأوي اليه: وكان فقراء المسلمين من الذين يأوون الى الصفة، أو من أهل الصفة اذا جاز التعبير يكتسبون عند امكان الاكتساب، الذي لا يصدهم عما هو أوجب أو أحب الى الله من الكسب، وأما اذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب. فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله، وكان الرسول ﷺ يبعث اليهم بما يكون عنده[1].

ومن الواضح الجلي أن ادعاء المتصوفة ومن ذهب معهم من الكتاب اشتقاق التسمية (تصوف) من (صفّة المسجد) يستهدف به ارتباط التصوف في نشأته الأولى بعصور تاريخية متقدمة بل يستهدف.ارتباطه بعصر النبي ﷺ والزعم في نفس الوقت بأن الرسول ﷺ. قد أقر منهجهم في الافتقار والاعتزال والتجرد والتواكل المزعوم، وهذا مالا يقبله عقل منصف اطلع على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بالاضافة الى سيرة السلف رضوان الله عليهم.

ومن أجل التدليل على الزعم الذي يذهب الى اشتقاق نشأة التصوف من صفّة المسجد يقول السهروردى في كتابه (عوارف المعارف): (قد اجتمعوا بمسجد المدينة، كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والرّبط لا يرجعون الى زرع ولا الى ضرع ولا الى تجارة وكان - فما زعم السهروردي بغير حجة ولا سند متصل يؤكد ما يذهب اليه في زعمه رسول الله ﷺ يحث الناس على مواساتهم ويؤاكلهم ويجالسهم.

ويكفي في رفض هذا الزعم ودحض هذا الرأي الذي يربط (التصوف) بصفّة المسجد أن اشتقاقه اللغوي سقيم ومرفوض، لأن مقاييس اللغة لا تعين عليه فضلا عن سيرة الرسول ﷺ مع أصحابه وعدم وجود نمط من أصحابه يعتبر أساسا في سلوكه لهذه الدعوى الصوفية.

وفي مجال البحث التاريخي المجرد يجيء (جورجي زيدان) الكاتب النصراني فيعقد صلة بين الكلمة العربية (تصوف) والكلمة اليونانية (سوفيا) فيقول: انها

---

(١) مجموعة الرسائل والوسائل) شيخ الاسلام بن تيمية ط القاهرة عام ١٩٥٢.

مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي (سوفيا) ومعناها الحكمة فيكون الصوفية عند جورج زيدان قد لقبوا بذلك الاسم الذي عرفوا به نسبة الى (الحكمة)، لكن المستشرق (نولدكة) استبعد هذه الصلة لأسباب لغوية يونانية نعتقد أن الكاتب النصراني جورج زيدان كان يجهلها وهي: أن (سيجما) اليوناني حرف يمثل في العصور المتأخرة، بحرف السين العربي في جميع ما عرب من كلمات يونانية لا بحرف الصاد[1].

هذا ومما يجدر ذكره أن هناك نسبة ضعيفة للفظة (تصوف) لم تجد عند الباحثين استحسانا مثل النسبة الى الصفة، إذ أن كلمة التصوف عند من ذهب هذا المذهب من المتصوفة تعني - في زعمهم - بالاتصاف بالصفات الحميدة وترك الصفات الذميمة[2].

وهذه النسبة لم تلق من الاستحسان فضلا عن عدم الاستقامة العلمية ما حصرها في نطاق الرأي الضعيف الذي لم ينظر اليه تاريخيا بعناية.

هذا ونسبة (التصوف) الى الصوف، أقرب الى الاشتقاق اللغوي خاصة اذا نظرنا الى الظروف التاريخية التي نشأ فيها بعض الذين انخرطوا في سلك المتعبدين بالقلوب المعطلين لأسباب العبادة والسعي والذين تميزوا في الحياة العامة بارتداء توب الصوف، ثم تطور منهجهم في تناول بعض المسائل الدينية الى المستوى الذي أصبحوا فيه أبعد ما يكونون عن المنطلقات والبدايات التي كان عليها علماء السلف رضوان الله عليهم، بل إن التطور في تناول بعض المسائل الدينية عند أولئك الذين تميزوا بارتداء ثوب الصوف قد أصبح أبعد ما يكون عن البدايات المستقيمة نوعا ما عند بعض الذين نهجوا تعبديا عرف بالتصوف.

ويبدو أن البداية عند بعض المؤرخين في دراسة سلوك التصوف كان اعتقاد البعض منهم من ذوى القلوب الحية والضمائر النقية أن ارتداءهم للصوف، انما هو محاكاة، واقتداء بالصالحين، وخاصة فيما اعتقدوا أنه اقتداء بأصحاب رسول الله ﷺ، مع أننا نستبعد هذا التصور، لكن المسعودي روى في (مروج الذهب) في الجزء

---

(١) (نشأة التصوف الاسلامي) د. ابراهيم بسيوني ط دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ ص ١٠.

(٢) (نشأة التصوف الاسلامي) د. ابراهيم بسيوني ط دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩ ص ١١.

الأول صفحة ٤١٨، في أخبار أبي عبيدة بن الجراح أنه حين كان بالشام يظهر على الناس وهو يرتدي الصوف الجافي لامه على ذلك بعض أصحابه وقالوا له: (انك بالشام وحولنا الأعداء، فغير من زيك وأصلح من شارتك، فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عهد الرسول ﷺ.

ولا نعتقد أنه ان صح هذا الموقف حول أبي عبيدة رضي الله عنه، أن البدايات الأولى لحركة بعض الزهاد كانت تستهدف سلوكا تعبديا واجتماعيا على غرار القائد الجليل أبي عبيدة، فقد عرف عن معظم أولئك الذين كانوا البدايات السلوكية لظاهرة الزهد: القعود والتواكل والافتقار الى الناس.

كما ينسبون الى الحسن البصري قوله: (أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف)[1].

ويبدو أن لتأثير الرهبنة المسيحية التي كان فيها الرهبان يلبسون الصوف وهم في أديرتهم كثرة كثيرة من المنقطعين لهذه الممارسة على امتداد الأرض التي حررها الاسلام بالتوحيد أعطى هو الآخر دورا في التأثر الذي بدا على سلوك الأوائل من رواد حركة الزهد والانقطاع له كما أعطى تأثيرا في سلوك العناصر التي رغبت في التقشف والانكماش في هذا النهج المتخفف من جهاد الحياة والكد فيها.

غير أن مسار هذه الجماعات التي انطلقت تحمل مؤثرات غير اسلامية بالمستوى الذي كان عليه السلف من المسلمين فتعرج في عدة اتجاهات حتى كادت أن تنقطع الصلات والروابط التي بينهم وبين الاسلام وحتى إنه ليمكن القول وبغير تجاوز أنه قد ضل على مسار التاريخ الاسلامي الطويل معظم المنخرطين في سلك الجماعات الصوفية وكان من أمرهم ما كان مما سنعرض له في الصفحات التالية.

نظرة تاريخية على ظاهرة التصوف

على ضوء حقائق التاريخ الاسلامي، وسيرة الصدر الأول، بالاضافة الى سلوك وحياة علماء السلف رضوان الله عليهم فضلا عن عهد النبي ﷺ وطوال مرحلة الخلفاء الأربعة، لم تكن ظاهرة التصوف وما تمثله من منطلقات ومظاهر تمثل سلوكا

---

(١) أبو نعيم الاصبهاني: (حلية الأولياء) جـ٢، ص ١٣٤.

معينا متميزا تقوم به جماعة من المسلمين دون غيرهم.

والمحاولات أو المواقف التي كان فيها بعض المسلمين من أصحاب القلوب الرقيقة، أو ممن كان لهم مواقف متصلبة وآذوا كثيرا من المسلمين قبل اسلامهم ثم أرادوا التنطع والغلو في تناولهم لتعاليم وتوجيهات الاسلام أو أرادوا التفرغ الكامل والزهد والاعتكاف عن ضروب الجهاد كل أيام عمرهم، كان رسول الله ﷺ ينهاهم عن ذلك الاقبال أو هذا الانضواء والانطواء، حين كان ﷺ يقول: (انما بعثت بالحنيفية السمحة)[1].

وحين يقول ﷺ: (فان لجسمك عليك حقا، وان لعينيك عليك حقا، وان لزوجك عليك حقا)[2].

وحين يقول ﷺ: (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه)[3]

وحين دخل (بهلول بن ذئيب) على النبي ﷺ باكيا وقد تغيرت ملامح بهلول، فسأله النبي عن سر بكائه: فقال: (يا رسول الله... لقد ركبت ذنوبا إن يأخذني الله ببعضها... خلدني في جهنم، ولا أرى الا أنه سيأخذني).

بهلول هذا رضي الله عنه كان قد مضى الى الجبال بعد شعور ركبه ويأس سيطر عليه في أنه لن يشمله عفو الله ورحمته فأغل نفسه بالحديد، ووقف بالجبل ينادي: يا إلهي وسيدي ومولاي... هذا بهلول مغلولا مسلسلا معترفا بذنوبه[4].

وحين علم النبي ﷺ بأمر رجل على شاكلة بهلول بن ذئيب صام النهار ولم يفطر الليل قال له ﷺ: (من أمرك أن تعذب نفسك؟ ثلاث مرات...)[5].

وحين طوقت (الحولاء بنت نويت) نفسها بحبل حتى لا يغلبها النوم وعلم صلى الله

---

(١) مسند أحمد جـ٥، ص ٢٦٦.

(٢) مسند أحمد جـ٥، ص ٢٦٦.

(٣) ابن قتيبة (عيون الأخبار) ط دار الكتب المصرية عام ١٣٢٥ هـ. ص ٣٧٥.

(٤) (أسد الغابة) جـ١ - ص ٢١٠، ٢١١.

(٥) (مسند أحمد) جـ٥ - ص ٢٨

عليه وسلم بذلك حين حدثته عائشة رضي الله عنها في شأنها قال: (عليكم من العمل ما تطيقون، فان الله لا يمل حتى تملوا، وأحب العمل اليه أدومه وان قل)[1].

هذا ويروى أنس فيقول: دخل الرسول ﷺ المسجد، فاذا خبل ممدود بين ساريتين، فقال ما هذا الحبل؟ قالوا: لزينب. اذا فترت تعلقت به، فقال النبي: لا... حلوه... ليصل أحدكم نشاطه.. فاذا فتر فليقعد)[2].

خلاصة القول من كل هذا ومن هذه النماذج التي عرضنا لها أن عصر صدر الاسلام، لم يكن في حاجة الى أن تنشأ فيه هذه الظاهرة، ولا أن يكون بين أهله من يحاول التميز بسلوك ينفرد هو به دون غيره أو أن يذهب يفسر شططا بعض أمور العقيدة[3] على ضوء ما يروق له في ظل ظروفه الخاصة، أو على ضوء ما بدر منه، فالمسلمون جميعا أهل تقوى وزهد وعكوف على الطاعات منقطعين لله تعالى، اذا ما انتهوا من كدهم وكدحهم في الدنيا على ضوء ما أمر الله ورسوله ولم يكن بينهم من يريد أن يستقل بسلوك أو بنهج في التعبد يخرج به عن نطاق ما في كتاب الله والعمل بسنة رسوله ﷺ.

وكان أفضل وأكرم اسم يحبون أن يعرفوا به هو أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وأنهم مسلمون، وحتى الجيل الثاني الذي شهد أصحاب رسول الله ﷺ كان الشرف الذي يحرضون على أن يحملوه والسمة التي يحبون أن يعرفوا بها، وأن يعيشوا على هديها هو أنهم ممن صحب أصحاب رسول الله ﷺ، خلاصة القول أن القرن الأول كله لم يشهد على كثرة ما حدث فيه من انقسام أمة الاسلام الى فرق سياسية وخاصة بعد مقتل علي رضي الله عنه أقول لم يشهد القرن الأول تسميات للدلالة على سلوك البعض من القبيل الصوفي، كدلالة معينة على سلوك البعض واتجاههم نحو الزهد والتقشف والانقطاع الذي يعتبره المتصوفة أساسا تاريخيا عندهم بدأ مبكرا بل كان أكرم وأشرف ما يتمنى الورع التقى الذي هو المسلم الملتزم بأحكام كتاب الله وسنة نبيه

---

(١) (حلية الأولياء) جـ٢ - ص ٦٥.

(٢) (حلية الأولياء) جـ٢ - ص ٦٥.

(٣) (شرح منازل السائلين) للانصاري. شرح الفركاوى. طبع المعهد العلمى الفرنسي للأثار بالقاهرة عام ١٩٥٣. ص ٤١.

والمجاهد ساعيا في سبيل دعوة الاسلام والكسب الحلال، كان أكرم وأشرف ما يتمناه بعد رضا الله أن يعرف بأنه: صحابي، أو تابعي، ولم تكن اصطلاحات وتسميات، صوفي، وزاهد وعابد ومنقطع، وصاحب مقام كذا وكذا مما لم يعرف في عصر صدر الاسلام قد نشأت بعد.

غير أن بعض المؤرخين يرون أنه لما فشا الاقبال على الدنيا في أواخر القرن الثاني الهجري وما بعده وجنح الناس الى مخالطة المتاع الدنيوي، قيل للخواص من المسلمين ممن لهم شدة عناية، بأمر الدين: الزهاد، أو العباد، ثم لما اشتد ساعد الفرق السياسية وانقسمت فيما بينها وخرجت متأولة بعيدة عن منهج والتزام أهل السنة والجماعة من العلماء وجمهور الأمة، ونشب الصراع الفكري بين هذه الفرق دست كل فرقة على غيرها، أخبار مجموعة من الزهاد والعباد الذين أحيطت سيرتهم بهالة من التقديس والتكريم، دون أن يعرف أحد من الذين انتهت اليهم سيرتهم عنهم شيئا أو أن يقفوا لهم على تراث أو رأي، الأمر الذي أدى الى أن ينتحى في ظل الصراع جانبا منه مجموعة من العباد أطلقوا على أنفسهم أو أطلق عليهم اسم (المتصوفة) بحكم ما ميز مظهرهم وهو لبس الصوف في أغلب الأحوال، ومع ذلك لم يذع اسم (المتصوفة) ويشتهر على الألسنة، ويتداول كمنهج في التبتل أو الانقطاع أو العبادة يخالف ما عليه جمهور الأمة قبل المائتين من الهجرة[1].

هذا ويقول: عمر رضا كحالة في كتابه (الفلسفة الاسلامية وملحقاتها) المطبوع في دمشق عام ١٣٩٤ - ١٩٧٤م: ورد لفظ: (الصوفى) لقبا مفردا في النصف الثاني للهجرة اذ نعت به جابر بن حيان الكوفى.

وأما صيغة الجمع: (الصوفية) فانها ظهرت فيما انتهى اليه عمر رضا كحالة عام ١٩٩ هجرية فكانت تدل على قرابة ذلك العهد على مذهب من مذاهب التصوف الاسلامي، يكاد يكون شيعيا، وكان (عبدك) في آخر أئمة هذا المذهب، وهو من القائلين بالتعيين، وكان لا يأكل اللحم، توفي ببغداد حوالي ٢١٠ هـ. واذن فكلمة (صوفى) ودلالتها على نمط من السلوك كانت في أول أمرها وحتى نهاية القرن الثاني

---

(١) الكندي): (القضاة والولاة) نشرة كست - طبع اليسوعيين بيروت عام ١٩٠٨ ص ١٦٢.

الهجري مقصورة على الكوفة، حيث المؤثرات الفارسية والهندية القديمة كانت تطل في شكل افرازات فكرية على الساحة الاسلامية.

وقد أطلق: الصوفي والمتصوف، بادىء الأمر في هذه الحقبة التاريخية بالذات أي بعد انقضاء مائتي عام من الهجرة مرادفا للزاهد والعابد والفقير، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة، ولم يكن الفقر والزهد ولبس الصوف يتجاوز نطاق هذه الدلالات الى ما استحدث بعد ذلك في سلوك المتصوفة وبدعهم ورسومهم، أي أنه من الممكن القول أنه حتى القرن الثاني للهجرة كانت دلالة الفقر والزهد والتقشف ولبس الصوف المظاهر التي كانت تؤدي الى نعت بعض الناس بهذه الصفة: صوفي: تختلف في دلالتها عما انتهت اليه نفس المظاهر حين أصبحت تعبيراً عن دلالات أخرى افتقدت الاخلاص لله وسلامة السلوك ونظافة القلب.

ومن الجدير بالذكر أن أحكام الشريعة كانت حتى ذلك الحين تتلقى في معظمها من صدور الرجال، لا فرق بين عباداتها ومعاملاتها وعقائدها، ثم تحدث الناس في الأمور الدينية على ما سمي بالنظام العلمي، ونشأ التدوين فكان أول ما اتجهت اليه الهمم، وانصرفت اليه الأفكار هو علم الشريعة، بمعنى الأحكام العملية، حتى حسب الناس أن الاشتغال بهذا العلم والعمل به هو غاية الدين.

وفي مواجهة هذه الغاية الشرعية التي اتجهت اليها همم الرجال لتدوين أحكام الشريعة والانشغال بهذا الجانب، وذلك لتعليم أجيال المسلمين أحكام الاسلام وقواعد الشريعة فضلا عن اعداد الرجال لحمل دعوة الاسلام، خرجت من البصرة في العراق مجموعات طورت من سلوكها وأدخلت بعض المظاهر والطقوس على ما اعتبروه زهدا وعبادة، حتى افترق الناس في أمر هؤلاء الذين زادوا في مظاهر عباداتهم، وغالوا في نهجهم وأحوالهم، واتخذوا لذلك حلقات وأماكن وخلوات خاصة بهم يجتمعون فيها مع من يريدون ومن يصطفون، بطريقة ونهج لم يعرف عن أصحاب رسول الله حين كانوا يقومون بأمر ربهم، أو حين كانوا يمارسون ضروب العبادة المختلفة.

ومن هنا رأينا قوما يذمونهم وينتقدون شأنهم، ولا يستريحون اليهم.

وقوم يبجلونهم ويحترمون أمرهم، حتى انقسم المتصلون بالاسلام وشريعته من أهل

الديار التي لم تكن مسلمة وانتسبت بالفتح لأمة الاسلام الى قسمين رئيسيين.

انقسم بعد ذلك عن القسمين الرئيسيين انقسامات وفرق كثيرة، كانت في معظمها ، شيعية وباطنية وصوفية.

هذا وقد كان القسم الأول من القسمين الرئيسيين الذين ترتبا على ظهور ونمو حركة التصوف أن القسم الأول، يدعو الى العمل، على أن يكون العمل بالأعمال الشرعية الظاهرة التي تجري على الجوارح والأعضاء الجسمية، وهي العبادات، كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم... وأحكام المعاملات كالحدود والزواج والطلاق والعتق والبيوع والفرائض والقصاص، وسمى هذا العلم علم الفقه وهو في جملته وقواعده مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا الذين انشغلوا وركزوا جل اهتمامهم بالعبادات والمعاملات وذلك لبناء المجتمع الاسلامي متميزا على غيره من المجتمعات.

والقسم الثاني يدعو أصحابه لما أسموه: العلم بما يدل على الأعمال الباطنة ويدعو اليها من خلال ما أسموه: أعمال القلوب، وسمى هذا المنزع كما أحب أن يطلق عليه أتباعه والذين ينخرطون في طريقه: بعلم التصوف، وأحيانا يسمونه: علم القلوب.

كما أحب المتصوفة في هذا المقام أن يسموا أنفسهم: أرباب الحقائق، وأهل الباطن، وسموا من عاداهم أهل الظاهر وأهل الرسوم، ومن هنا أحدث المتصوفة الفجوة الجوهرية التي بينهم وبين جمهور أمة الاسلام ممثلا في منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة.

وحتى منذ هذه المرحلة أعنى من القرن الثاني الهجرة، والتصوف يمكن أن يقال عنه أنه لم يتجاوز نطاق الحركة داخل أخلاق الاسلام وان كان بعيدا عن معاني العبادة الحقة وجوهر الالتزام الصحيح في الاسلام حول كتاب الله وسنة نبيه، غير أنه حتى هذا التاريخ لا تبدو على المتصوفة دلائل تأثيرات وافدة من خارج البيئة الاسلامية، ولم يكن لجهد مفكري الصوفية في تأويل المعاني وتخريج دلالات لها لم يكن لهذا الجهد سلبية متصلة بما يسمى بأعمال القلوب كما وقع الزعم بعد ذلك قويا أو واضحا.

وحتى الألفاظ التي دارت بين الصوفية، وانفردوا بها عمن سواهم، لا نجدها واضحة أو ظاهرة على لسان وأخبار أولئك الذين كانوا قد بدأوا يقطعون صلتهم

بالنهج التعليمي الشرعي في مجتمع الاسلام وأخذوا شوطا باطنيا شخصيا، واتجهوا لربهم بما أسموه أعمال القلوب، ولم يكن خروجهم عن ساحة العقيدة الاسلامية قد قطع شوطا أو أصبحوا يمثلون دورا متميزا في الابتعاد عن أحكام وقواعد الاسلام. بحيث يتعذر تصور خروج معظم من اشتغل بما أسموه أعمال القلوب عن ملة الاسلام.

لكن بداية الانفتاح، وبروز ظاهرة التصوف كتيار ديني منحرف في التناول الفكري وممارسة العقيدة داخل المجتمع الاسلامي واعتباره مظهر خروج على نهج وعقيدة السلف كان بعد ذلك أعني بعد مرحلة القرنين الثالث والرابع الهجريين[1] وخاصة حين ازدهر العمل الصوفي في هذه الفترة بأثر من الدس الشعوبي الأمر الذي عاون على ابراز مجموعة ضخمة من المتصوفة على امتداد الديار الاسلامية، حتى كان من أمر التصوف في البيئة الإسلامية باعتباره نهجا غريبا عن الأصول الاسلامية ما كان حين أحدث سلبيات وانحرافات في السلوك. أدت لظهور أجيال بعد ذلك في المجتمع الاسلامي، وهي معزولة تماما عن ثقافة دينها، وعن العمل بأحكام كتاب ربها ومن هنا لم تستطع الصمود أمام غزو الأفكار الوافدة، وما استتبعها بعد ذلك من غزو لمعظم ديار المسلمين.

تطور ظاهرة التصوف وشيوعها

ما إن أقبل القرن الثالث الهجري، إلا وكانت السمة التي تميز سلوك مجموعة من العباد الذين استهواهم النهج الصوفي وما سمى بأعمال القلوب، قد دخلت طورا أصبحت بغداد فيه عاصمة للظاهرة التي عرفت باسم (التصوف). وبينما كانت حلقات الدرس والتناظر حول أحكام الشرع الاسلامي، في مسائل الفقه والتوحيد تتخذ نهجا هادىء النبرات، قوي الحجة كان ضجيج شيوخ المدارس الصوفية فيما بينهم، وبين مريديهم يعلو كل صوت، وينفذ إلى معظم ديار المسلمين، متسللا من خلال عباءات الشيوخ وعذب حديثهم للعامة وتساهلهم وتنازلهم عن كثير مما هو مندوب أو

---

(١) (في التصوف الاسلامي وتاريخه).. (نيكلسون) ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي - لجنة الترجمة والنشر مصر - عام ١٩٤٧ - ص ١٢٠.

واجب في السنة المطهرة الأمر الذي يروق لألئك الذين كانوا حديثي عهد بالاسلام، وذلك لكي يروج النهج الصوفي ويكثر أتباعه في معظم الديار، بعد أن أحيط بهؤلاء الذين أطلق عليهم أهل الباطن أو أرباب الحقيقة بهالة من التقديس والاحترام المصنوعين، حتى يشتد اقبال الناس عليهم والانضواء تحت لوائهم.

هذا وقد ذكر الكندي مثلا[1] في محاولة منه غير موضوعية أن يوحي بغير سند أو برهان أن التصوف عرف بمصر منذ سنة ٢٠٠ هجرية، أي قبل مرحلة تطور ظاهرة التصوف بأكثر من مائة عام وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين الثقاة.

يقول: (وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية، يأمرون بالمعروف - فيما زعم - ويعارضون السلطان في أمره، فترأس عليهم رجل منهم يقال له: أبو عبد الرحمن الصوفي الذي ولى الاسكندرية سنة ٢٠١ هجرية.

وما إن انتهى القرن الثالث الهجري بعد تسرب الصوفية إلى الديار الاسلامية حتى امتلأت الساحة الاسلامية بالمدارس والمذاهب الصوفية التي صنعت للمريد لكي يدخل إلى مقام شيخه أو ينخرط في سلك عضوية طريقه، نوعا من الرسوم والطقوس، أطلقوا عليها اسم الأحوال والمقامات تدرجا في طريق العشق والوجد والفناء والاتحاد والحلول وغير ذلك.[2]

ومع أن قلة قليلة من شيوخ المتصوفة، لم يطمس عقلهم التيار الصوفي المتدفق، من مصادره العديدة التي وفدت من الافكار الهندية واليونانية والمسيحية وأن كان كان قد شاب صحة عقيدتهم، ما شابها مثل: - الجنيد القائل فيما نسبوا اليه:: مذهبنا هذا مقيد بالاصول: الكتاب والسنة، الا أن السمة العامة لمذاهب التصوف والقاسم المشترك، والنهج المميز للمتصوفة في تناول أمور العبادة وغيرها هو ما يسمونه: - (الذوق) وهذا المعيار أو قل هذا النهج واسع وسع كل الميول والعواطف والمشارب الانسانية التي قد تكون في بعض منطلقاتها تمثل تناقضا فيما بينها، فضلا عن أن هذا الذوق الذي يخرج عن قيد النص الشرعي. ودلالته المباشرة الى التناول

---

(١) (الكندي). (القضاة والولاة). نشرة كست طبع اليسوعيين - بيروت - عام ١٩٠٨ ص ١٦٣.

(٢) (نشأة التصوف الاسلامي) د. ابراهيم بسيوني ص ١٧٠.

الذوقي بما يفسد المعاني ويؤول الالتزامات، لا يستقيم مع قواعد الشرع وفرائضه، ومن هنا فقد تعذر على القلة القليلة من العناصر النقية والتقية من التي ظنت أن التصوف منهج في العبادة يعبر عن حاجة العبد وافتقاره إلى ربه، أن يحموا النهج الصوفي من التأثر والاندماج ثم الامتزاج بأفكار ومعتقدات غير اسلامية[1]، شكلت في العصور المتأخرة جوهر السلوك الصوفي.

هذا وقد لاحظ مؤرخو الفرق والمذاهب، أنه كلما مضت مرحلة بعدِ الاخرى منذ انتهاء القرن الثالث الهجري، ومعدلات الجهل بالدين وانتشار البدع وسط بيئة التصوف وبين جماعات المتصوفين في ازدياد مستمر.

هذا وقد امتلأت ديار المسلمين منذ حوالي ألف عام بعناصر صوفية، انضوت تحت مذاهب وطرق بعضها نقيض الآخر. من حيث الممارسة وفن التعبير مما سمي(بالطريق)، ذلك أن بعضهم لم يجد وسيلة للتعبير عن علاقته بربه، بعد انطفأ نور العقل عندهم، وقهرت أحكام الشريعة في حياتهم، وأصبحوا نماذج افساد في مجتمعاتهم يمارسون الرقص في حلقات والتصفيق مجموعات، وذلك هو ما ميز ملامح الطرق الصوفية على طول مراحل التاريخ الأخير سوى الاستسلام للشيطان.

وقد لاحظ كتاب الفرق أن المتصوفة في سبيل نجاح ذلك الشكل الرمزي الذي استهووا به العامة وضعوا لانفسهم شارات وعلامات ورايات، واتخذوا طبولا ودفوفا، ونوتة موسيقية كاملة، ومن اعتدل منهم ولم يلجأ إلى هذا الشكل المادي الحسي الذي يكاد أن يكون ضربا من ضروب الوثنية، والذي يشبه ماكان عليه بعض الجاهلين من اتخاذهم بين أساليب العبادة الوثنية المكاء والتصدية انشغل، بما أسموه: الذكر الذي قسمه (السهروردي) في (عوارف المعارف)[2] إلى أربعة أقسام.

ذكر باللسان، وذكر بالقلب، وذكر بالسر، وذكر بالروح، فإذا صح فيما زعموا ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر، وذلك عندهم هو ذكر المشاهدة.

وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر الهيبة.

---

(١) النيسابوري: - (عقلاء المجانين) دمشق عام ١٩٥٤ ص ٩٠

(٢) (عوارف المعارف) (السهروردي) المكتبة العلامية سنة ١٣٥٨هـ ص ٥٦.

واذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر، وذلك ذكر الآلاء والنعماء - فيما ذكروا -

واذا غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر وذلك ذكر العبادة.

بهذا الترتيب الذي لم يكن معروفا ولا متداولا في عصر صدر الاسلام. فضلا عن افتقاد معناه ودلالته وهيئته في السنة رتب المتصوفة منهجهم هذا. اذ ترفع بعضهم عن الهبوط بمستوى الممارسة الصوفية إلى أساليب التأثيرات المادية والأشكال الرمزية. والاستعانة بالأدوات الفنية.

هذا ويرى بعض الباحثين أنه قد نجا بعض رجال الصوفية وان كانوا قلة قليلة من الوقوع في متاهات الطقوس المادية وأشكال الممارسة الرمزية التي تعاون على تقديس وتبجيل الشيخ الصوفي من قبل أتباعه.

وحول هذا المعنى المزعوم يروي صاحب (الحلية) [1] عن منصور بن عمار الذي يقول فيما نسب اليه صاحب الحلية: (... تكلمت في مجلس فيه سفيان بن عيينة والفضيل، وعبد الله بن المبارك.. فأما سفيان فترغرغت عيناه ثم نشفتا. وأما ابن المبارك فسالت دموعه. وأما الفضيل فانتحب فلما قام الفضيل وابن المبارك قلت لسفيان يا أبا محمد: ما منعك أن يجيء منك ما جاء من صاحبك؟ قال: هذا أكمد للحزن، فان الدمعة اذا خرجت استراح القلب).

هذا وعلى نفس النهج الذي يعبر عنه في الفكر الغربي المعاصر بالمزاج (الميلودرامي) فان ولع الصوفية في العصور المتأخرة التي غاب فيها عمل اسلامي راشد يقف في وجه انحرافهم قد دخل طور فن المناجاة والايقاعية مع صخب التأثير الفني للأدوات الموسيقية وذلك للتأثير في الجماعة واحداث هدير وصخب في حركتها بحيث تشيع العفوية والارتجالية، بعيدا عن كل التزام شرعي انطلاقا من احساسهم الخاص بما أسموه أهمية (الاشارة) قبل (العبارة)، ليدفعهم ذلك النهج حين يملأهم الطرب ويستولي عليهم الاندماج في المقام إلى ما يشبه حلقات الرقص الفردي أو الجماعي، ولا يستطيع المرء، أن يميز بينهم وبين مجموعات ترقص في حانة للابتذال والفساد.

---

(١) (حلية الأولياء) أبو نعيم الأصبهاني جـ ٧ - ص ٣٠٢ مطبعة السعادة بمصر عام ١٩٣٢م.

وفي هذا يقول (يحيى بن معاذ المتوفي سنة ٢٥٨ هجرية).

دققنـــــــا الأرض بالرقص عـــلى غيـــب معانيكـــا
ولا عيـــب عـــلى رقـــصلعبـــد هـــائم فيكـــا
وهـــذا دقنـــا لـــلارض اذا طفنـــا بواديكـــا[1]

هذا ويخطىء الصوفية تماما حين يربطون بين ما يعبرون عنه اثناء ممارستهم لطقوس التصوف بما أسموه: مذاقات الحب والفناء في المحبوب، وبين قول الرسول ﷺ: (ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا) فان طعم الايمان لا تعبير عنه الا بالاسلام ممثلا فيما شرع الله لعباده وفق القواعد التي أرادها الله في كتابه، وعلمها رسوله ﷺ وسلم في سنته، لا وفق الذوق الصوفي ولا الوجد الروحي. حتى لا يجد المسلم نفسه أمام متاهات النهج الصوفي وقد خرج تماما عن روح الشرع الاسلامي ولم يعد يملك منه حين يقوم به الا أن يقول في سلبية ممجوجة كما يقول ابن العربي:

يـا ربّ جوهر عـلم لو أبوح به لقيـــل لي أنت ممن يعبـد الوثنـا

وهذا الخلل الفكري في تناول أمور العقيدة الدينية الذي روج له المتصوفة دفع بعض الباحثين من القدامى والمحدثين الى الوقوع في نفس المنزلق الفكري الذي يبعد المسلم الذي يتورط في الوقوع في هذه المتاهة عن قواعد الشرع الاسلامي وضوابطه. حتى يصبح الأمر بعد ذلك أمام المتصوفة ميسرا لمختلف كل الأذواق، وسهل التناول لجميع الأمزجة، طالما هم اطمأنوا إلى خداع ذلك المنطق المزعوم، وهو أن جوهر العلم الذي يشبه الوثن عند ابن العربي نهج يفوق التدين والالتزام بقواعد الشرع.

وفي هذا الخطأ الصوفي بل في هذا الخلل الفكري وقع بعض الباحثين[2] حين حاول أن يترجم هذا الفساد السلوكي بأنه سلوك ديني بقوله: (... والواقع أن التصوف يقوق التدين والتفلسف في تخليص القلب لهذا الحب وتنقيته لاستقبال تلك العاطفة، ذلك لأنه في التدين التقليدي. ينبغي أن تظل مجموعة من الأمور خافية عن

---

(١) (اللمع) أبو نصر سراج الدين - القاهرة عام ١٩٦٠ ص ٤٥٢.

(٢): (دكتور ابراهيم بسيوني): (نشأة التصوف الاسلامي) - دار المعارف مصر عام ١٩٦٩ ص ١٦٧.

الانسان، بينما تحاول التجربة الصوفية، أن تميط اللثام عن كل شيء، وأن تذيب الفواصل التي تغلف هذه الخافيات...).

وهذا النهج الفكري الذي أراده الصوفية في التفريق بين ما ذهبوا اليه وبين قواعد التدين الشرعي في العبادات وغيرها والخروج عن نطاق الالتزام بعقيدة السلف هو المستهدف أصلا من غزو الأفكار الغير الاسلامية للساحة الاسلامية وذلك لخلق جيل من المسلمين علاقاتهم بربهم من خلال التدرج في مقامات الصوفية بدءا من إرادة المريد حتى مقام الحلول المزعوم لكي يتم لهم كما يزعم بعض المتصوفة التفوق على التدين التقليدي والذي هو ارتباط بقواعد الشرع وعقيدة أهل السنة والجماعة، وذلك حتى تحقق الصوفية أهدافها المباشرة والتي كانت بأثر مباشر من نظرية الفيض الغنوصية التي طورت على يد ابن عربي فيما بعد، بعد أن دستها الثقافة اليونانية على يد الاسماعيلية الباطنية الذين كانوا أدوات نقل جيدة لأفكار الفرس واليهود واليونان والنصارى من بعد، حتى يمكن عزل جمهور أمة الاسلام عن الاعتصام بحبل الله المتين وسنة نبيه ﷺ والانضواء تحت لواء أهل السنة والجماعة.

وهذا هو الدور الرئيسي الذي قامت به المذاهب الصوفية على امتداد ديار المسلمين حين عملوا على استقطاب أجيال من المسلمين بينهم وبين منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة فجوة نفسية وروحية وعقدية، سلطان شيخ الطريق على نفوسهم هو الذي يصنع هذه الفجوة وهو الذي ما بعده سلطان[1].

رسوم التصوف وشعائره:

يقوم المذهب الصوفي بأشكاله المختلفة في العصر الحديث بعد أن مر بمراحل وتطورات عديدة أفسح فيها المجال دعاته والمؤمنون به والمروجون له للثقافات والمفاهيم والممارسات الغير الاسلامية حتى ولا العربية يقوم على جملة من الآراء والنظريات ومناهج التناول تدل على مدى تأثر الفكر الصوفي بالنهج الباطني الشعوبي القديم الذي كانت عليه عقائد الكهنة عند الفرس القدامى وبين يهود السبي ابان مراحل التشريد، حين اضطروا لوضع قواعد ورسوم تنظم علاقاتهم بالكهان أو

---

(١) (لويس ماسينيون): (التصوف) - دائرة المعارف الاسلامية الجزء الخامس ص ٢٩٧.

بالقائم على أسرار الدين ومن هذه الرسوم على سبيل المثال لا الحصر ما يسميه المتصوفة بالطريق.

الطريق الصوفي ودلالاته:

الطريق الصوفي هو على ضوء ما كتب المتصوفة وما عرفه عنهم الراصدون والمؤرخون هو أن يختار جماعة من المريدين شيخا لهم يسلك بهم رياضة خاصة بهم على دعوى وزعم تصفية القلب لغاية الوصول إلى معرفة الله[1].

بهذا التصور ومن خلال تلك الغاية يفرض الطريق على المريدين اتباع الشيخ، الاتباع الأعمى وتبجيله على اعتقاد من المريدين بأن الشيخ الصوفي (شيخ الطريق) قد انكشف له الحجاب وتجلت له الأقدار وعرف الأسرار إلى غير ذلك مما يروج على ألسنة أتباع الطريق.[2]

وعلى المريد ان كان يريد الاستمرار والتدرج في طريق صعود الطريق المواظبة على ما يردده الشيخ من أدعية وأذكار، على أن يكون في كل علاقاته بشيخه كما عبر الشيخ (القشيري)[3]: كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، لا حركة ولا تدبير، وعندئذ يكون المريد قد أصبح عضوا في طريق الله على حد ما يزعمون، من خلال شيخ صوفي من أهل الطريق، عرفوه بأنه: الولي الذي يتولى أمر أتباعه في قيادتهم نحو آخر المطاف في الطريق.

والولي عند الصوفية هو الواصل الى مرتبة العرفان عن الطريق الموصلة إلى أهدافهم المتصورة، وعلى ضوء حالات ومراحل المعرفة عندهم، والتي هي فيما يعتقدون مما اصطلحوا هم عليه مرحلة: الكشف أو الإشراق[4].

هذا ويعتقد الصوفية جميعا بغير خلاف، القدامى منهم والمحدثون أن: العارف هو

---

(١) أبو حامد الغزالي (أحياء علوم الدين) جـ ٤ - ص ٦٤ طبعة المعرفة.

(٢) (القشيري) (الرسالة القشيرية) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الأولى عام ١٩٦٣ م صفحة ٩٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٠.

(٤) أبو حامد الغزالي (أحياء علوم الدين) جـ ٣ - ص ١٧.

الذي تنكشف له الحجب ويشهد من علم الله ما لا يشهده سواه. وتظهر على يديه الكرامة التي هي عندهم أمر خارق للعادة يتكرر كبرهان لهذا الولي الصوفي المزعوم.

وقد ظل هذا النهج والتدرج في مراحل الطريق القائم والمعتمد على شخص بعينه أو من ينيبه عنه في حله وترحاله. أو من يخلفه بعد مماته هو الشكل المادي ومصدر التوجيه الروحي الذي تلوذ به جماعة المريدين بغير تنظيم طرائقي في مراحل الصوفية المبكرة أي منذ القرن الرابع الهجري، حتى أخذ العمل الصوفي في العصور المتأخرة الشكل الجماعي والأسلوب التنظيمي، وأصبح بشكل أساسي أحد التيارات الاجتماعية المعبرة عن شكل سياسي في البلد الذي يعمل فيه أتباع الطريق في مواجهة شكل أخر.

هذا وقد أنشأ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة ٥٦١ هجرية الطريقة (القادرية) التي نرجح أنها أول طريقة منظمة لأهداف صوفية منذ ذلك التاريخ.

في هذا يقول الدكتور أحمد غلوش في مجلة المقتطف: ليس من خلاف بين الطرق الصوفية من حيث الأسس والمبادىء الأصلية، وإنما الفرق في نوع الأذكار والأوراد التي يواظب عليها المريد من أتباع كل طريقة منها.

ثم يعقب على ذلك الدكتور أحمد غلوش متأثرا إلى حد ما بمنهجهم فيقول: قد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام، ويؤتى حظا كبيرا من الأنوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من أسماء الله الحسنى، فيكون ذلك سببا أو أساسا لانشاء طريقة جديدة، مشتقة من طريقته القديمة.. ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور[1].

ولا نعتقد أن ذلك سبب كاف لتعدد وتنوع الطرق الصوفية بل نعتقد أن تعدد الطرق الصوفية إنما هو نهج باطني يستهدف بالتعدد القاء المزيد من الغموض والابهام حول الأهداف والبواعث الحقيقية للحركة الصوفية باعتبارها فكرا وافدا على النهج الاسلامي الصحيح استهدف تحريف العقيدة وتعطيل عقل الأمة في ارتباطه بشرع الله وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) عمر رضا كحالة (الفلسفة الاسلامية وملحقاتها) ط دمشق عام ١٣٩٤ - ١٩٧٤ ص ٢٦٤، ٢٦٥.

هذا ويعتقد أتباع الطرق الصوفية. أن سلوك الطريق يبدأ عند المريد باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب أي قلب الصوفي طبعا فتنبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان. وعدم الوقوف عند حد التصديق أو اليقين الذي حصل عليه بالتوارث أو بالاستدلالات المنطقية والعقلية.

هذا ويبلغ الغلو الصوفي مداه وهو يكشف عن مدى تبلد عقل المتصوفة في النظر إلى قضايا العمل الشرعي والالتزام به حين يعبرون عن تدرج مراحل السالكين في الطرق الصوفية بقولهم: ان الرغبة في اتباع الطريق تأخذ في القلب ازديادا وتمكنا في القلب بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس إلى الرقي الروحي، فيتملكها الحنين والشوق إلى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا نقلية[1] ولا عقلية، ويغلب أن تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية، فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون أن يجد من عقله مرشدا كافيا يحل معضلاتها. فيلجأ عند ذلك أحد المرشدين إلى طريق الحق، من المشايخ الصوفية المحققين العارفين بالله عند من يعتقد أنه سبق لهم سلوك هذا الطريق بعينه، وهو مأذون، من شيخه بالتسليك فيه، ويطلب إليه أن يدخله في عداد أتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه، ففي هذه الحالة يسمى الطالب مريدا. أي يريد السير في الطريق، وهذه أولى المنازل وتسمى عند أتباع الطرق الصوفية منزلة: الارادة. وعندها يتلقاه الشيخ بالفرح والسرور، ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه. والتبري من حوله وقوته، واخلاص النية في مقصده، وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه، والأذكار والأوراد المشروعة عندهم، فضلا عن القيام بما يوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه.

وهذه الفقرة الأخيرة هي اللازمة التقليدية التي تدس فيها مخاطر الطريق يوصي بملازمة التقوى في السر والعلانية، ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر، ويعطيه الأوراد، ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكا)، جاعلا أكبر همه في

---

(١) لاحظ هنا أن الهدف الصوفي هو أن تكون العلاقة بين الله وخلقه من خلال ذوق العبد واحساسه لا من خلال كتاب الله وشرعه. فالهدف على ضؤ النص الصوفي الذي بين أيدينا. أن تكون معرفة الله ذوقية لا نقلية وهذا بغير شك يخالف منهج أهل السنة والجماعة مما يتأكد معه خروج النهج الصوفي عن عقيدة السلف.

الدنيا الاشتغال بـ العبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ، فيقبل على الله بصدق النية وتصوفية القلب عما سوى الله - هكذا زعموا - حيث ينتقل بذلك إلى مقام يسمى مقام (العبودية) ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل، والتزلف الى بارئه، على أن تكون الضـراعة، بالأوراد والأذكار التي تميز الطريق عن غيره.. وعند هذه المرحلة يعتقد أهل الطرق الصوفية، أنه بعد مقام (العبودية) يصبح العبد أهلا لأن تقبل عليه العناية الالهية بعد أن تقبل مناجاته وضراعاته لترتقي بعد ذلك في القلب لتصير عشقا لله، وعند هذه يكون ابن الطريق قد دخل مقام (العشق)[1]. وعليه أن يظل سالكا مواظبا على أذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه، وعلى ضوء توجيه شيخه تحسب الخطوات هنا في هذا المقام بدقة محسوبة، فان كان السالك أهلا للمزيد، فإنه يشغل وقته قارنا ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما أمكن من الطعام والشراب والكلام والنوم، حتى تتملكه فيما يزعم الصوفية حالة علوية شريفة ينتقل بها إلى مقام (الوجد والهيام) وهو أسمى من مقام (العشق)[2].

وعند هذا المقام الذي فيما زعم المتصوفة يستولي على جميع النفس ويعطل عمل الجوارح غالبا ويقتل الهمة والارادة الانسانية. بل يميت في نفس المسلم عقيدة الجهاد والعمل على تبليغ الدعوة استغراقا وتفرغا لقطع الطريق في متاهات وضروب الخط الصوفي الطويل.

عند هذا المقام المزعوم الذي يستولى على جميع النفس تتوراد على قلب السالك ما أسموه النفحات الربانية[3]، والبركات الالهية تواردا متصلا، يعتقد أهل الطريق من الدارويش أنه بها تزداد معرفة السالك الباطنية لصفات الذات العلية (تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا). وهنا يصل السالك فيما زعموا الى الحقيقة المجردة التي استهدفها يوم سلك الطريق، وتسمى عندهم هذه المرحلة: (بمقام الحقيقة).

---

(١) الشعراني (الطبقات الكبرى) جـ ١ ص ٦ طبعة مصر ١٣١٠هـ.

(٢) عمر رضا كحالة (الفلسفة الاسلامية وملحقاتها) ص ٢٦٥.

(٣) يراجع هذا الترتيب عند الصوفية في كتاب (هذه هي الصوفية) للعام السلفي حامد الفقي تحقيق الدكتور سيد رزق الطويل صفحات ١٤٠ - ١٤٥ القاهرة.

وليت الأمر يقف عند هذا المستوى بالقوم فيما ضلوا به عند هذه الحقيقة المزعومة، بل يعتقد أهل الطريق فيما زعموا أن وصول السالك الى هذا المقام المدعي (الحقيقة) يمكنه من أن يظل يرتقي الى منازل ثلاثة يزعمونها وتسمى عندهم التسمية التي تؤكد بنهاية الشوط الصوفي وقوع الأتباع والرواد في شرك الوثنية الحلولية التي قال بها اليهود والنصارى ومن قبل الفرس واليونان، هذه المنازل الثلاثة هي: (الفناء، اللقاء، البقاء).

وهذه المراحل الثلاث التي يعنون بها فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله - تعالى الله - على اعتقاد أنه أي العبد من خلالها تتجلى له عظمة الخالق سبحانه على قلب السالك، فلا يرى أمامه الا الله، ولا يجد في الوجود جميعا الا واجب الوجود سبحانه، وتمحي آثار الموجودات من أمام عينيه الا وجود الله سبحانه وهم في هذا المقام يعتبرون السالك في سكر عن الوجود الا ربه، وعندئذ يكون المعنى الذي عناه الحلاج وضل به وأضل (ما في الجبة الا الله) قد أصبح أمام أهل الطريق محدد المعالم واضح القسمات كأنه لا يحمل بين صريحه ودلالته عقيدة كفر حلولية لا يمكن أن تقوم برهانا أكثر من كونها تعبيرا عن ردة تنقل صاحبها الى معتقدات وعقائد الفرس واليونان ولا يمكن أن تكون تعبيرا عن عقيدة الايمان بالله في الاسلام.

هذه هي الأصول المشتركة لكل الطرق الصوفية، والنماذج التي أتينا عليها هي بعض الملامح العامة لكل المنطلقات والغايات الصوفية وإن اختلفت الوسائل وتنوع الاداء وتعدد الاسلوب، فأن الغاية المستهدفة هي خلق أجيال تنتسب إلى الاسلام وليست تعبيرا عنه في جهاد أو كفاح فضلا عن عقيدة تضبط وتوجه نهج حياة المسلمين، بغير خضوع لذوق شيوخ الصوفية ولا تدرج مقامات الطريق[1].

أدب صوفي في الحب:

كان من الطبيعي، ومن بين مدارج السالكين[2] في الطريق الصوفي شعارات وشارات وممارسات، أساسها الذوق، أن يكون لهم في لغة حبهم ما يميزهم عن غيرهم، أو ما به يعرفون.

---

(١) عمر رضا كحالة (الفلسفة الاسلامية وملحقاتها) ص ٢٦٥.

(٢) النيسابوري (عقلاء المجانين) دمشق عام ١٩٢٤ م ص ٩٥.

ومن هنا رأينا على لسان شعرائهم وأدبائهم نتاجا أدبيا. يضع بعضهم في مستوى من الذوق الذي ادعوه سلوكا تعبديا وتدرجا في مقام الطريق. مع مستوى شعراء الحب والغزل، بل وفي مستوى أكثر حدة عن مستوى معظم ما يسمى بالفنون الحسية والجمالية، التي أفرزتها الثقافة المسيحية في ظل تفسيرات الكنيسة للاهوت الديني عندهم، ونصوص كتبهم المتوارثة عبر التاريخ».

وهم أي المتصوفة في خلجاتهم ووجداناتهم. كلفون بالتقسيمات والتفريعات والتخيلات الفنية التي لا يمكن أن تقوم برهانا على سمو روحي، بل أنها لا تعبر الا على الاستجابة لقهر الحس وسيطرة الغرائز، واذا ما سئلوا عن مثل هذه الظاهرة وتطورهم في هذا النهج الحسي. بينما هم فيما زعموا يتدربون في مقامات الطريق على التجرد، أجابوا: أنه بسبب التغيرات النفسية التي تطرأ على قلوبهم بسبب الأحوال التي تعرض لهم، أثناء تدرجهم بين المقامات والاهداف[1] ومن هنا تجيء هذه النغمات بل هذه الصور الحسية التي لا تستقيم مع قلب مشغول بالله.

ولننظر بعض الانتاج الادبي الصوفي الذي ينسب لبعضهم فيما زعموا على أنه معاناة، أو تجربة صاغوها في علاقاتهم بربهم الذي كثيرا ما يتحدثون عنه حديث العارف.

أقول: فلننظر الى نماذج من أحاديث الذوق التي انفردوا بها او قل بنهج الاشارة قبل العبارة المنهج الذي ما عرفه علماء السنة، ولا يعثر عليه الباحث في تاريخ السلف إبان مراحل جهادهم في خدمة دعوة الاسلام وتبليغ كلمة الله للناس.

من بين حشد الادب الحسي الذي ملأ به النيسابوري كتاب عقلاء المجانين نرى في ترجمة ميمونة السوداء قولها «الذي لا مضمون له ولا دلالة عليه سوى ذلك المعنى الوجداني الغامض الذي لا يفصح عن علاقة منظمة بين العبد وربه أساسها نهج بلغه النبي ﷺ عن ربه.

تقول ميمونة فيما نسب اليها النيسابوري[2]: -

---

(١) أبو نعيم الاصبهاني (حلية الاولياء) ج ٨ ص ٢٧٩.

(٢) النيسابوري (عقلاء المجانين) ترجمة ميمونة.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسر قد تناجى تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش الى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صرفا وتشرب من كئوس العارفينا[1]

وأما ريحانة التي ترجم لها النيسابوري أيضا في عقلاء المجانين فهي التي تقول: -

حسب المحب من الحبيب بعلمه أن المحب ببابه مطروح
والقلب فيه إن تنفس في الدجى بسهام لوعات الهوى مجروح[2]

وصاحب الرسالة القشيرية ينقل عن (عتبة الغلام) قوله: - (إن تعذبني فأنا لك محب وإن ترحمني فأنا لك محب) [3].

أما داود الطائي فحين خرج على الناس ذات يوم وقد بدا عليه الانشراح وسئل عن السبب في ذلك فقال: - (أعطوني الصباح شراب الانس فاليوم عيد)[4].

ولا يعرف قطعا غير داود الطائي ومن هو على شاكلته ما هو شراب الانس هذا لذي يجعل اليوم عيدا.

أما أبو علي الروزباري صاحب الجنيد فهو الذي قال حين قالوا له: - (غدا لعيد) فقال لهم كما نقل عنه صاحب الرسالة القشيرية: - قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه: فقلت خلعة ساق حبه جرعا

قالوا: غدا العيد ماذا أنت لابسه، فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما قلب يرى إلفة الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

---

(١) النيسابوري (عقلاء المجانين) ترجمة ريحانة.
(٢) الرسالة القشيرية ص ٩٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) أبو نعيم الاصبهاني (حلية الاولياء) ج ٧ ص ٣٤٦.

هذا وللصوفية ولع كبير في إنتاج أدبهم وتسجيل حبهم بمحاكاة الحب العذري، واحيانا كثيرة بالنهج الجنسي، لكنهم خشية الوقوع في الحرج يلجأون دائما الى التأويل والتخريج، فمن المعروف أن السمة الغالبة على شعر المحبين والعاشقين التركيز على ذكر اسم المحبوبة، وذكر مواطن اللقاء، وتصوير أيام الصبا ولقاءات الهوى والحب بين المحبين، كما هو الشأن مثلا في شاعر بني عامر الذي افتتن بحب ليلى العامرية، وعرفه الادباء وذاع صيته: باسم مجنون ليلى، أنه كما يقول عنه صاحب (اللمع) اذا نظر الى الوحش قال: - ليلى واذا نظر الى الجبل قال: - ليلى، وإذا نظر الى أحد من الناس قال: - ليلى، حتى إذا قيل له ذات يوم: - ما اسمك؟ قال: - ليلى، ونسبوا اليه: -

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وعلى هذا النسق الحسي الفاسد، ذهب الصوفية في أدبهم، وحاكوا شعراء الغزل في انفعالاتهم نحو محبوبيهم، وأرادوا أن يدفعوا تهمة تسميتهم محبوبهم باسم الأنثى على غرار نهج شعراء الجنس فقال أحدهم:

أسميك ليلى في نسيبي تارة ... وآونة سعدى وآونة ليلى
حذارا من الواشين أن يفطنوا لنا ... والا فمن لبنى فديت ومن ليلى[1]

ومن هنا رأينا (الشبلى) في زعمه عن الحب الالهي يعبر عنه ويصوغه على النحو التالي:

لقد فضلت ليلى على الناس كالتي ... على ألف شهر فضلت ليلة القدر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر[2]

ولما كان اطلاق اسم المحبوب الأنثى عند شعراء الغزل، قد تجاوز الاسم للذات، الى اسم الديار والنسب والصفات، فانه لا بأس عند (الشبلي) أن ينشد لابن أبي ربيعة قوله:

---

(١) الراغب الاصفهاني (محاضرات الأدباء) طبع مصر عام ١٢٨٧هـ جـ٢ - ص ٦.
(٢) أبو نصر السراج (اللمع) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود - القاهرة - عام ١٩٦٠ ص ٣٢٢.

أيهـا المنكـح الثريـا سهيـلا عمرك الله كيـف يجتمعـان
هي شاميـة اذا مـا استهلـت وسهيـل اذا مـا استهل يماني[1]

ونرى آخر يقول:

لا تقـل دارهـا بشرقي نجـد كـل نجـد للعامريـة دار
ولهـا منزل عـلى كـل مـاء وعـلى كـل دمنـة آثـار[2]

يقول الدكتور ابراهيم بسيوني في تعليقه على ظاهرة العلاقة بين شعر الغزل وأدب الصوفية:[3] يحدثنا تاريخ ابن عربي أنه قد أولع بجمال فتاة حجازية ولعا نفذ به من جمال المخلوق الى جمال الخالق، أو من الحسن المتكثر، الى الجمال المطلق وكانت الفتاة ابنة أبي شجاع زاهر بن رستم بن أبي الرجاء الاصفهاني.

فهل يقودنا ذلك الى أن نستنتج أن أصحاب الحب الالهي (المزعوم) لا بد وأن يتمرسوا بتجربة الحب البشري قبل أن يعانوا الحب الالهي. وأن الانطباعات الأولى قد التصقت بهم حين انتقلوا الى الجو الجديد؟.[4]

وينتهي الدكتور بسيوني وهو المتأثر كثيرا في دراسته بالجو الصوفي القائم على النهج الرمزي في تفسير كل ما لا يستقيم مع السياق العام الذي يكون بصدده الى أن المسألة تعود الى رهافة الحس ممتزجة بما أسماه بالاستعداد الروحاني، ويستشهد بما يرويه عن (الشبلي) حين يقول: (... يا قوم هذا مجنون ليلى بني عامر، كان اذا سئل عن ليلى يقول: أنا ليلى، فكان يغيب بليلى عن ليلى، ويغيب عن كل معنى سوى ليلى، ويشهد الأشياء كلها بليلى، فكيف يدعي من يدعي محبته وهو صحيح مميز يرجع الى معلوماته وحظوظه فهيهات!! أني له ذلك ويزهد في ذرة منه ولا زالت عنه صفة من صفاته[5].

---

(١) الشعراني (الطبقات الكبرى) طـ مصر سنة ١٣١٥هـ ص ١١٧.
(٢) أحمد الكمشخانوي (جمع الأصول) ط القاهرة - عام ١٩١٠ ص ٥٨ نقلا عن ابراهيم البسيوني في نشأة التصوف الاسلامي ص ٢٢٠.
(٣) نشأة التصوف الاسلامي - ابراهيم بسيوني - ص ٢٢٠.
(٤) د. ابراهيم بسيوني (نشأة التصوف الاسلامي) صفحات ٢٢١ - ٢٢٣ بتصوف
(٥) المصدر السابق.

وعلى هذا النهج الغير المستقيم في الربط والتأويل يذهب أبو سعيد الخراز هو الآخر في نهج الدكتور بسيوني فيما رواه عن أبي نعيم في الحلية حين يروي أبو نعيم في الحلية[1] قول أبو سعيد الخراز:

أسائلكم عنها فهل من مخبر ... فمالي بنعم مذ نأت دارها علم
فلو كنت أدري أين خيم أهلها ... وأي بلاد الله اذ ظعنوا أموا
اذا لسلكنا مسلك الريح خلفها ... ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

أما النصر أباذي فيشكو من صعوبة وصالها. فيقول:

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فاني من ليلى لها غير فائق
فأكثر شيء نلته من وصالها ... أماني لم تصدق كلمحة بارق

وهكذا على هذا النهج حاكى أقطاب التصوف شعراء الغزل حتى رأينا ابن عطاء المتوفى عام ٣٩٠ هجرية يرضاها في كل أحوالها ويقول عنها:

اذا نطقت جاءت بكل مليحة ... وان سكتت جاءت بكل مليح[2]

ومن قبله أبو الحسين الوراق المتوفى عام ٣٢٠ هجرية هو القائل:[3]

أتطمع في ليلى وتعلم أنما ... يقطع أعناق الرجال المطامع

أي أن الأمر عند هؤلاء هو كما يحاولون دائما أن يبرروا به احساسهم الحسي هذا بأن الحب أرهف احساس المحبين، لكننا كما نرى من النماذج التي بين أيدينا أنه خرج عن حدود العلاقة التي تنضبط بشرع الله بين العبد وربه.

فهؤلاء المتصوفة كنظرائهم من شعراء الغزل والحب تغنوا بالمحبوبة.. باسمها وأوصافها، وديارها ونسبها، وكشف لهم حب الحس عن مواطن الفتنة في طرفها وجيدها ووجهها ولفتتها وحديثها، وكانت ليلاهم على حد ما زعموا وخدروا به احساسهم فريدة في توحدها وتمنعها وعزتها..

---

(١) أبو نعيم الاصبهاني (حلية الأولياء) جزء ١٠ ص ٢٤٨.

(٢) شهاب الدين السهروردي (عوارف المعارف) ص ١٩٩.

(٣) أبو عبد الرحمن السلمى (طبقات الصوفية) نشرة وتقديم بيدرج (ليدن) عام ١٩٦٠ ص ٣٠١ - نقلا - عن نشأة التصوف الاسلامي - ص ٢٢٣.

وليس أدل على رهافة الحس عند المحبين من هذه النوبات التي كانت تصيبهم. اذا ترامى الى أسماعهم وقلوبهم حديث الحب. فرب بيت من الشعر ينشده انسان بقصد أو بغير قصد، يصيب المحب بانقلاب نفسي. أو عضوي عارم، فيطرب أو يرقص، ويبكي أو يتشنج. ويزعق أو يشهق. ويرغى ويزبد، بل قد تذهب روحه في نوبة من تلك النوبات.

وأمام مثل هذا النمط من العاطفة المرضية والعلاقة الحسية المؤججة بنار اللوعة والحرمان. لا يمكن أن يصح أو يصدق زعم أرباب الطرق في أنهم نقلوا سلوك الزهد والتقشف من عالم العبارة كما يقولون الى عالم الاشارة كما يزعمون.

هذا ويسجل لنا الأدب الصوفي انموذجا مغرقا في شطحات الهوى الصوفي أقرب ما يكون في الدلالة على ابطال الزعم الفاسد عن الحب الصوفي الالهي، الذي زعموه فيما سجل أو فيما زعمه الحلاج بالحب الإلهي والذي عبر عنه عمر ابن أبي ربيعة من قبل بقوله..

ومن كان لا يعدو هواه لسانه ... فقد حل في قلبي هواك وخيّما
وليس بتذويق اللسان مصوغه ... ولكنه قد خالط اللحم والدما[1]

فقد قال الحلاج مصورا ملازمته المدعاة لربه[2]، حتى ما عاد مع هذه الملازمة المزعومة الا شعورا واحساسا لهذه الملازمة لا غيرها. يقول:

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... الا وحبك مقرون بأنفاسي
ولا خلوت الى قوم أحدثهم ... الا وأنت حديثي بين جلاسي
ولا ذكرتك محزونا ولا فرحا ... الا وأنت بقلبي بين وسواسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش ... الا رأيت خيالا منك في الكاس[3]

وعلى هذا النمط سار معظم الانتاج الأدبي للمتصوفة، حتى استهوى عذب الحديث ووقع الجرس الموسيقي للأوصاف والجمل والتعبير الحسي البليغ،

---

(١) الرسالة القشيرية - ص ١٣٧.
(٢) الاغاني - جـ ١ - ص ١٠٧ طبعة التقدم.
(٣) الديوان الشعري لأبي العتاهية - طبع - بيروت - القطعة رقم ٣١.

استهوى العامة، وشد حواس وانتباه معظم أولئك الذين وجدوا فيه متنفسا تعبيريا أسقطوا به حالات الألم والمعاناة التي لم ينجحوا في علاجها أو وضع الحلول الشرعية لها، الأمر الذي يتعذر معه بل ويستحيل تصور أن يكون ذلك نهج عبادة أو منطق دين.

ومن هنا رأينا أجيالا من المتصوفة تنخرط في هذا المجال وتعمق علاقاتها بالحالات النفسية المرضية التي استعصى عليها أن تقود رشدا أو أن تحمل دعوة مثل تلك النماذج التي أبانت عنها الروح الأدبية عند المتصوفة، حين ذهبت تعطل في حياتها اليومية شرائع الله وفرائضه من صلاة وصوم وحق وخير، فضلا عن تبليغ دعوة أو رفض ظلم.

ومنذ القرن الخامس الهجري وحتى اليوم، فان معظم الفرق الصوفية ان لم تكن جميعا تنتظم حلقات للدرس الطرائقي والورد الصوفي وهم في ذكرهم وحلقاتهم، مجموعات مجموعات من الرجال والنساء، معا وبغير حجاب، وبعض هذه المجموعات في الغالب الأعم حين اختلاط هذه المجموعات في سن مبكرة وعند مواسم ذكر الشيخ أو ميلاد أئمة الطريق يقومون في حلقات للانشاد الجماعي أو للهمس الجماعي أشبه ما يكون برقص جماعي في زعم فاسد ودعوى كاذبة وهي أن الملائكة تحضر معهم وتباركهم على هذا النغم الراقص، وقد دفع بكاتب هذه السطور ذات يوم في سن الشباب الى بيت أحد الشيوخ من أصحاب طريقة شهيرة في إحدى بلاد الاسلام فوجد في حلبة الذكر الجماعي، رجلا ضخم الجثة يمسك عصا حديدية ومسبحة، ويضرب بها متنقلا بين زحام الذكر التي غصت بالرجال والنساء وبينهم شباب وشابات في سن العشرين، وكان الرجل في خبث (مايسترو) يتنقل وهو يردد قول الحلاج السابق الذكر والذي حاكى فيه ابن أبي ربيعة في حبه العذري.

ولا ذكرتـك محزونا ولا فرحا الا وأنـت بقلـبي بـين وسواسي
ولا هممـت بشرب الماء من عطش الا رأيـت خيالا منك في الكاس

واذا بصوت نسائي يصدر من بين الحلبة التي علا ضجيجها يعلق على هذين البيتين، حين كان الرجل يرددهما بالنغم المميز للطريق بحركة (هيستيرية) مندفعة بين الصفوف تروح وتجيء وهي في سن الشباب ترتدي ثوبا أبيض ضاق بجسدها الممتلىء

وهي تقول: يا روحي يا روحي يا روحي ثلاث مرات الهبت حماس جميع من في الحلقة، فتحولت العبادة المزعومة وذكر القلب المدعي الى هدير راقص، كان فيه المنشد أشبه بمقاء (المايسترو) وحين أدرك أنهم اجهدوا وبدأو يتساقطون أمسك عنهم وهم بين الأنات والآهات والصراخ، وقام كاتب السطور وهو في ريعان شبابه يضرب كفا على كف وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله، وتترجم له مشاعره أسئلة حيرى حول هذه الظواهر السلبية القاتلة، وهو يقول بعد مرور الأيام والاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه من خلال ما عليه وما رضيه أهل السنة والجماعة، ما الذي كان يمكن أن يكون عليه المسلمون اليوم، لو انشغل السلف في صدر دعوة الاسلام، بمثل هذا التشتت الفكري والذهني فضلا عن الخروج والابتعاد عن قواعد الشرع وتعطيل أحكام الله وفروضه. هل كان من الممكن أن ينتشر الاسلام بين الأمم والديار التي ذهب اليها على يد أولئك الذين كانوا لهم شرف حمل دعوة الاسلام الى الناس وتبليغهم اياها وهدايتهم بها تطبيقا لأمر الله وعملا بأحكامه وبنهجه في العبادات والمعاملات.

نعتقد أنه لو انشغل المسلمون بشيء في عصر صدر الاسلام من هذه الأساليب الوافدة والمتطورة مع حاجات الحس، ووفق اذواق أرباب الطرق، ما تمكن المسلمون من أن يصدوا عدوانا أو يبلغوا دعوة أو أن يتركوا في الناس ذلك التراث العلمي الرصين الذي أشعت عليه السنة المطهرة بقواعدها وضوابطها، فكان صمام الأمن والملجأ والملاذ لأمة الاسلام بعد كتاب الله، في مواجهة هذه الافرازات السلوكية المعطلة لارادة وقوة الايمان في قلوب المسلمين.

وفي نهاية المطاف نستطيع القول وفي يقين بأن التراث الأدبي الصوفي بمحاكاته لأدب الحب العذري عند شعراء الغزل، لم يضف الى الرصيد الفكري للأدب العربي، فضلا عن التاريخ الاسلامي، أية قيمة أدبية، ساهمت في دفع الأمة الاسلامية تاريخيا الى بعض أهدافها على طريق الله الحق، وتطبيق أحكامه في الناس، ولعله أي التراث الصوفي مضافا الى الحشد الضخم من النتاج الفكري لافرازات فرق الباطنية وأساليب الشعوبية، هو الذي كان وراء ذلك الحشد الضخم من الطرق، والمذاهب التي لا يحصيها عد ولا يجمعها حصر، والتي تقف اليوم حجر عثرة بما صنعته من تمزيق لوحدة عقيدة شباب الاسلام في بعض ديار المسلمين ضد امكان حشد طاقة هذا

الشباب المسلم نحو محو الأمية الفكرية والعقلية واستقامة وصحة عقيدته الدينية وذلك حتى لا يقبل هذا الشباب على الانضواء تحت لواء كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وحت ينسلح الشباب والشيوخ معا من الاعتصام بعقيدة أهل السنة والجماعة والتي أثبتت على امتداد تاريخ الإسلام أنها هي وحدها التي شكلت قوة التعبير عن عقيدة الاسلام في مواجهة أعداء الأمس، وهي وحدها التي تقدر على تعبئة أمة الاسلام حتى تتطهر الساحة الاسلامية من تأثيرات الرواسب الصوفية ضد أعداء اليوم الممثلين في موجات الغزو الصليبي في بعض ديار المسلمين والتمدد الماركسي في بعضها الآخر. وما ذلك على الله ببعيد.